# 4

## هي مثلي تماماً، هي ليست مثلي أبدًا.
## أين تنتهين وأبدأ أنا؟

«أنا وأمي على علاقة قريبة جداً». «أتمنى لو أكون قريبة أكثر من ابنتي». «عندما بدأت الذهاب إلى نادي الرياضة مع أمي أحسست أني أقترب منها أكثر».

عند التحدث مع النساء عن الأمهات أو البنات الراشدات فإن الكلمة التي كانت دائماً تأتي في السياق باستمرار هي كلمة «القرب». سواء شعرت النساء بهذا في العلاقة أم تمنوا زيادته. فالقرب كان دائماً المقياس الذي تقاس به العلاقة. عبرت النساء كثيراً بأنهن يقدرن القرب ويفتقدنه عند نقصانه، وبالمقابل فإن القرب الزائد لا يشعرهن بالراحة.

عبرت النساء أيضًا أنها تخشى - بل وتلتمس ما هو عكس القرب أحيانًا - البعد. قالت إحدى البنات: «لقد كان علي وضع القليل من المسافة بيننا». وتعليق آخر سمعته من إحدى الأمهات: «إن البعد مؤلم لأن هناك أشياء في حياة ابنتي لا أستطيع الاستمتاع بها لأنها لا تخبرني عنها».

عندما تكون البنات في سن صغيرة فإن القرب الجسدي شيء حتمي ومطلوب بالنسبة لهن أكثر من البنين. وجد علماء النفس أن الأمهات تلامس أجسام البنات الرضع أكثر من البنين الرضع. وأثناء نمو الأطفال

لاحظت النساء أن البنات يَمِلْنَ إلى البقاء قريبات من جسد الأم أكثر من البنين. مثلاً كتبت امرأة لديها بنتان وابنان في بريد إلكتروني تقول: «تفضل البنات البقاء قريبات جداً، والملفت للنظر هو القرب الجسدي. ذهبنا أنا وابني وابنتي الصغيرة ـ ذات السبع سنوات ـ لشراء الملابس بالأمس، وقد كنت أدوس قدمها طيلة مرحلة مشينا لأنها كانت تود مسك يدي طيلة الرحلة ولم تترك مسافة بين جسدينا أبدًا. بينما اقترح ابني أن نستخدم جهاز النداء اللاسلكي بيننا حتى نستطيع أن نتجول كل على حدة بدون أن نفقد بعضنا».

وبينما تنمو الأم وابنتها وتتطور حياتهما، فإنهما تبقيان على تغيير وتعديل مسافة البعد والقرب بينهن ـ أعني القرب الجسدي والذي لا يعكس فقط بالاتصال الجسدي، ولكن أيضاً بمكان الإقامة. والقرب المجازي والذي يعكس مثلاً كم مرة يمشون فيها سوياً، أو حجم المشاعر التي يتصارحن بها، والتواصل العاطفي الذي يشعرن به. عندما تحدثت النساء عن أعظم متعة وأعظم خيبة أمل محزنة مرت بهن مع أمهاتهن وبناتهن، كُنَّ غالباً ما يستخدمن مصطلحات القرب والبعد.

تعبير آخر يستخدم دائمًا عندما تتكلم النساء عن بناتهن أو أمهاتهن هو عبارة «الشيء نفسه» إلى جانب التعبير المعاكس «مختلف». تقريباً كل النساء مرت بتجربة كهذه، حيث تفتحين فمك للحديث لكن كلمات أمك وصوتها يخرج. تأمرين بفعل شيء ثم تدركين أنك قمت بفعل أسلوب أمك نفسه. أحياناً تكون هذه تجربة لطيفة. لاحظت امرأة بعد موت أمها بمدة أنها تمسك السكينة وتقطع البصل بطريقة أمها، حتى أنها تمسح الطاولة

بنفس طريقة أمها. لقد وجدت هذا مريحًا لأنه أعطاها الشعور بقرب أمها. لكن هناك أيضًا أوقات تجد فيها المرأة نفسها تفعل أو تقول شيئًا ثم تتراجع عنه، لأنه قد أعاد إليها ذكرى تصرف أمها الذي لم يكن محببًا لها.

وزيادة على مقياس البعد والقرب هناك مقياس لا مفر منه وهو مقياس التشابه والاختلاف. وهذه جمل دائمًا ما تحوم فوق كل سؤال في كل دقيقة: أمي وأنا.. أو أنا وابنتي.. متشابهتان أو مختلفتان؟ وماذا يعني هذا التشابه أو الاختلاف لنفسي ولحياتي.

## رددي من ورائي

أخذت «جانيت» ابنتها «نتالي» ذات الثلاث سنوات لزيارة أمها التي كانت تتعافى في المنزل بعد جراحة. عادت الجدة من غرفتها بعد محاولتها أخذ قسطًا من الراحة، سألت جانيت أمها بقلق: «هل استطعت أن ترتاحي يا أمي؟ لم تستطع جانيت وأمها كتم ضحكاتهن عندما سمعن نتالي ذات الثلاث سنوات تردد السؤال بالنغمة الملطفة نفسها: «جدتي.. هل استطعت أن ترتاحي؟» أم أخرى قالت إنها سمعت ابنتها الصغيرة تتحدث على هاتفها اللعبة وتقول بصوت عذب طفولي» مرحباً.. إنه لطف منك أن تتصلي». ضحكت الأم من تقليد ابنتها المطابق لصوتها على الهاتف، وكيف أنها ميزت العبارة التي تقولها عندما تكون غير مسرورة بالحديث مع الشخص المتصل.

إنه من المضحك أن يقلد طفل صغير صوت أمه لكن عندما تقلد البنت الراشدة أمها بالضبط فهذا يكون مشهدًا مسلياً ومصدر متعة للمتحدثين في بعض الأحيان.

خلال حفلة دراسية تمكنت تلميذتي جينيفير ميكفادن من التقاط الأسلوب السابق على شريط مسجل، وكجزء من مشروع بحث قامت بتسجيل حوارات هاتفية دارت بينها وبين أمها. وجدت جينيفير أن التحية التي يفتتحون بها المكالمة تبدو وكأنها آلتا عزف تعزفان اللحن نفسه. مثلاً، حدث هذا التبادل عندما قامت جينيفير بالاتصال بأمها وقالت: «هاييييييي ماميييي». ناطقة بها بنغمة صوت عالية، راسمة المقاطع اللفظية الأخيرة بنغمة مميزة. أجابت أمها: «هاييييي جينييي». بنفس درجة الصوت تمامًا، وبنفس الإيقاع والنغمة المنحرفة. «كيف حالك؟» سألت جينيفر مستخدمة نفس النغمة العالية في آخر عبارتها. ومرة أخرى كانت إجابة الأم صدى مثاليًا لأسلوب تعبير ابنتها فقالت: «أنا بخير، كيف حالك أنت؟» وأخيرًا قالت جينيفير: «أنا بخيييير». ناطقة بها بلحن متعرج وفريد. وهذا الأخير التقى بنفس الترنيمة والإيقاع.. «جيِّيييييد». وبعد هذا بدأ الحوار.

هناك شعور جميل يعيد الطمأنينة للنفس عندما تبدأ التحية بدون عقدة أو تشابك. ويكون سارًا للغاية عندما يتبادل الطرفان نفس طريقة الأسلوب الفريدة و نفس التكرار تمامًا كما حدث بين هذه الأم وابنتها.

كان مثال جينيفير ملفتًا للنظر، لأن صوتها وصوت أمها تطابقا تماماً كورقة كربون. وإذا بدا هذا غير طبيعيٍّ فإن هناك الكثير من الأمثلة حيث تتشابه الأم وابنتها. وهذا ليس مفاجئا، لأن الأمهات يمثلن نموذجًا للبنات في طريقة الكلام و استخدام اللغة للتفاوض في العلاقة ومع العالم. وكنتيجة فإن البنات يصبحن كالمرايا التي تعكس أسلوب ومظهر الأمهات ووجهًا آخر للطريقة التي تمثل كل منهما الأخرى. أحياناً يعجبك ما تسمع

وما ترى، وأحياناً لا يعجبك. في كلا الحالتين فإن رؤية أمك أو أختك متمثلة في نفسك، أو نفسك متمثلة بأمك يجعلك تتوقفين وتفكرين بحقيقة نفسك وتتساءلين عن حقيقة من أنت.

قامت فيفيان كورانيك بإثبات هذا في مذكراتها «الرباط الرهيب» حيث سردت الطرق التي تجعلها تشبه المرأة التي ربتها، تذكرت كيف أن الجارة قالت لها يوماً: إن صوتها يشبه صوت أمها - عندما قالت - مقلدة عبارة أمها-: «هذا سخيف». وكيف أنها كانت تمتص خصائص كلمات أمها. وزيادة على هذا فقد امتصت أيضا عادة أمها في نبذ الجميع واعتبارهم غير ناضجين. وكلا التعبيرين ـ الأسلوب والافتراض ـ بليغين. قالت فيفيان:

«ابتسم والدي عندما وصفت أمي الجيران «غير ناضجين» هل كان اعتقادها من باب الزهو والغرور أو من باب التدليل. لم أعرف أبداً. وقف أخي محدقًا بدون أي تعبير وقد اتخذ الحذر أسلوبًا له منذ كان في العاشرة. لكني امتصصت الشعور في كلمات أمي. تشربت كل إيماءة مصاحبة وكل حافز وكل نية. أمي تعتقد بأن كل الأشخاص من حولنا غير ناضجين. وأن معظم ما يقوله الجميع سخيف. انطبعت هذه الفكرة برأسي تمامًا كما تنطبع الصبغة على المواد».

كانت فيفيان متقبلة لانطباع كلمات أمها بينما لم يتقبلها الأخ. ولم تكن راضية عن اكتشاف هذا الوجه من شخصية أمها. (ومن الواضح أن تعليق الأم عن الجيران لم يكن يعني الرضا أيضاً).

إن الأم تعلم أن اكتشاف البنت لأوجه شبه من شخصية أمها فيها لا يشعرها بالراحة، وهذا ربما يفسر عدم رضا الأم عند اكتشافها بأن

ابنتها تقوم بعمل الأشياء بطريقة مختلفة عنها. إن هذا الاختلاف قد يرسل ـ رسالة خفية ـ بالنبذ تعني: «أعتقد أن الطريقة التي تقومين بها خاطئة». وبعض هذا النبذ منطقي. لطالما سمعت كثيرًا من النساء تقول إنها تقوم باتخاذ قرارات مهمة في الحياة فقط حتى تكون مختلفة عن أمها. (بالرغم من اعترافها اللاحق بأنها تحترم خبرات أمها). مثلاً سمعت تعليقات كهذه «عندما رأيت الاختلاف بين أمي وأبي أخذت عهدا على نفسي ألا أفعل هذا أبداً». أو «كل أمهات صديقاتي كن نساء يشغلن مهنًا ووظائف وأمي كانت ربة بيت، لم أرض عن وضعها وقد عزمت على أن يكون لي وظيفة».

## إننا متشابهتان

كنت أتكلم مع مجموعة نساء وكان موضوعنا الأمهات والبنات، فقالت واحدة عن ابنتها المراهقة: «إننا غالباً ما نتفق على معظم الأشياء، لكن التوتر يحدث بسبب اختلاف جوانب شخصياتنا. فهي مبدعة جدًا لكنها أيضًا غير منظمة بتاتًا وفوضوية. وأنا منظمة بشكل كبير في كل شيء». قالت الأخرى: «أنا أعاني من مسألة أخرى. فان ابنتي تشبهني تمامًا.. تفعل الأشياء بنفس أسلوبي. إن هذا يصيبني بالجنون. إنه تمامًا كما قطبي المغناطيس، لن يلتقيا أبدًا». قالت ثالثة «إن أمي مثالية. وأنا أستعيد هذه المثالية».

ذكرت النساء اللاتي تحاورت معهن كيف أنهن مثل أمهاتهن وبناتهن أو «عكسهن». ولتفسير هذا التناغم أو التنافر قالت امرأة -وهي تشرح سبب اتفاق علاقتها مع ابنتها-: «ربما لأنها مثلي. لقد قيل: لي من قبل

إن مشيتنا متشابهة وأصواتنا واحدة على الهاتف، حتى أننا نلبس المقاس نفسه». امرأة أخرى شرحت لماذا لم تتفق كثيراً هي وابنتها فقالت: «إنني أبدو وابنتي أننا نتصارع ونتشابك دائماً بقروننا لأنها مثلي ـ معقدة ـ». قالت أخرى: إنها منزعجة من طرق التشابه بينها وبين ابنتها:«أنا أرى إزابيل تربي أطفالها بأسلوبي نفسه، إنها قاسية. مثلاً هي تصر على أن يأكلوا كل ما تضع في أطباقهم، بالرغم من أنني فعلت هذا معها لكني لا أطيق أن أراها تفعل هذا معهم».

إننا جميعا نقارن أنفسنا بأفراد عائلتنا، لا نقارن فقط بآبائنا ولكن بإخواننا وأولاد أعمامنا أيضاً. لكن السؤال ما زال هو: «هل نحن فعلاً متشابهتان؟» إن هذا السؤال جوهري وأساسي في حياة النساء الاجتماعية أكثر مما هو في حياة الرجال. لأن معظم طاقة البنت العاطفية مركزة على المراقبة والإرشاد وعلى مفاوضة الحلفاء (من معي ومن علي؟) بالمقابل فإن الأولاد غالباً ما يركزون على الحالة والدرجة في المجموعة (من في الأعلى ومن في الأسفل؟) وهذه الفروق واضحة في مقارنة قمنا بتسجيلها في فيلم بين أولاد وبنات يلعبون بغرض التدريب المهني. لقد سجلت الكاميرا أطفال روضة يلعبون، ومن خلال مقطعين قصيرين كانت الكاميرا قد التقطت بوضوح النمط المختلف الذي يفرق بين حديث البنين والبنات أثناء اللعب. في المقطع الأول يتحدث ثلاثة بنين عمن يستطيع أن يركل الكرة للأعلى، ومن الواضح أنهم كانوا يستمتعون بالمنافسة اللفظية. كانوا يضحكون بابتهاج كلما رفع أحدهم الكرة أعلى من الآخر. وفي مقطع مختلف تجلس بنتان على طاولة صغيرة ترسمان. عندما رفعت واحدة منهن رأسها وقالت بلغة الأطفال: «تعرفين مربيتي، اسمها آمبر، هي عندها عدسات لاصقة».

ترددت البنت الأخرى ثم قالت بنفس اللغة: «أمي عندها عدسات لاصقة، وأبي أيضاً». ثم عادوا إلى الرسم لكن بعد بضع ثوان رفعت البنت الأولى رأسها وأشرق وجهها وصرخت: «الشيء نفسه؟» وقد بدت مبتهجة لهذا التشابه تمامًا كابتهاج الأولاد بفوزهم على بعضهم. حتى البنت الثانية رددت نفس صيغة الجملة وهو نمط آخر لإظهار أنها مثلها.

قد سمعت قصصًا لا تحصى من آباء عن بناتهن وكيف أن البنات تريد من الآباء أن يكونوا تمامًا كالصديقات، وتود لو أن كل واحد من العائلة مثلها خصوصًا أمها. علقت أم بينما كانت تتحاور مع ابنتها ذات الثمان سنوات: «إننا شخصان مختلفان». فاعترضت ابنتها بقوة وقالت:كلا، إننا متشابهتان». وعندما حافظت الأم على هدوئها سألت البنت:«كيف نكون مختلفتين؟» فقالت الأم: «أنا أكبر». فألغت البنت رأي أمها ببراعة وقالت: «هذا مؤقت». فقالت الأم: «أنت دكتاتورية». وقد كانت البنت مستعدة فقالت: «عندما كنت صغيرة كنت دكتاتورية مثلي». تفادت الأم الضربة وقالت: «لكني نضجت ولم أعد كذلك». وردت البنت وقالت: «وأنا أيضاً سأنضج ولن أكون كذلك». لم تكن هذه الطفلة لتستسلم فقد كانت مصممة على أنها وأمها متشابهتان. وعندما تكون النساء بالغات فإن طرق الكلام التي يستخدمنها غالباً ما تعكس قيمة هذا التساوي أو التشابه بدون إدراك مقصود. لاحظ تلميذي مايك لال موقفًا غريبًا عندما دخل مبنى الجامعة مع أحدى زميلاته وكل منهما يحمل حاسوبه الصغير داخل حقيبه. وفي أثناء ذلك مرا بجانب صف من الطلاب ينتظرون دورهم لاستخدام حواسيب الجامعة. سلمت زميلة مايك على إحدى صديقاتها الواقفات، فقالت الصديقة: «إن علي رؤية بريدي الإلكتروني». فأجابت

زميلة مايك «إن علي رؤية بريدي الإلكتروني أيضاً. واستمر مايك وزميلته بالسير. سأل مايك لاحقًا زميلته لماذا لم تنضم إلى زميلاتها بالوقوف بالصف فأجابته أنها لم تكن حقًا تريد رؤية بريدها الإلكتروني. فسألها مايك: «لماذا إذًا قلت إنك تريدين؟» فردت: «لا أعرف».

إن السبب الذي لم تعرفه زميلة مايك هو أنها لم تفكر بشكل كامل بردها على تحية صديقتها ولم تعني ما قالته بالحرف. لكن جاء تعليقها بطريقة أوتوماتيكية وعفوية كطريقة مناسبة لإظهار النية الحسنة تجاه صديقتها بقول: «أنا مثلك أيضاً». وبالنسبة للبنات والنساء فإن التأكيد على التشابه طريقة لتعزيز وتقوية الرباط».

كثير من الحوارات التي تدور بين النساء مصممة لكي تعيد التأكيد بالتشابه والطمأنينة لبعضهن البعض. إذا قالت امرأة على سبيل المثال: «أنا دائمًا أقوم بتضييع أغراضي». فإن الأخرى على الأرجح سترد: «وأنا أيضًا». وربما تزيد وتقول: «هذا الصباح أمضيت عشر دقائق وأنا أبحث عن مفاتيحي». إن الشعور بأن شخصًا قريبًا ومحبًا يشاركك نفس التشابه يعطيك الإحساس بالرضا. ورسالة التذكير بالعادات المشتركة والإدراك الحسي ترسل رسالة خفية بأنك من المجموعة الصحيحة. ولهذا تضطرب كثير من النساء عندما ترفض إحداهن بالرد: «وأنا نفس الشيء». لنفترض أن امرأة قالت: «أنا دائمًا أقوم بتضييع أغراضي». وردت الأخرى: «لماذا لا تنتبهين بشكل أفضل إلى المكان الذي تضعين فيه أغراضك؟». ربما ترد الأولى وتقول: «لا تلقي علي النصائح». والسبب الذي أغضبها في هذا الرد هو الفشل في تلقي الطمأنينة والتأكيد بالتماثل المتوقع.

هنا مثال لامرأة انزعجت من فشل صديقتها في قول: «أنا مثلك». وهو أيضاً يوضح كيف أن البنت تتبنى أسلوب أمها في الحديث بدون وعي. كانت نورما تخبر صديقتها سوزن عن زيارة أمها لها فقالت: «كانت أمي تتذمر طيلة الوقت. خلال الخمس دقائق الأولى من نزولها من الطائرة كانت قد اشتكت من الرحلة، وكم كانت متعبة، وكم كانت الطائرة مكتظة». واستمرت نورما في السرد لصديقتها كيف أن أمها قد ضربت كل عصب ووتر، وسببت لها هستيريا. وقد توقعت أن سوزن ستقول شيئاً كهذا: «أنا أعرف طبيعة الأمهات هذه». أو حتى: «أمي فعلت الشيء نفسه عندما زارتني أيضاً». لذا فقد تفاجأت نورما عندما ردت سوزن وقالت:«إن أمي لا تتذمر أبداً، حتى عندما ينزل المطر فإن أمي تقول.. إن الشمس ستشرق غداً. وحتى وإن قامت بشيء مزعج فإني لا أستطيع أن أستخدمه ضدها لأن نيتها طيبة». وهذا جعل نورما تود الدفاع عن أمها وتسأل نفسها لماذا كانت تتكلم عنها بعدم احترام.

عندما فكرت بهذا المثال أدركت أن نورما وسوزن كانتا تتكلمان بالطريقة نفسها التي وصفن أمهاتهما بها. إن نورما كانت تحاول التواصل مع صديقتها من خلال الشكوى تماماً كما كانت أمها تحاول أن تفعل عندما كانت تشتكي لابنتها. وسوزن كانت تضع لفته إيجابية على كل فعل قامت به أمها، حتى عندما اعترفت أن هناك جوانب من تصرفات تزعجها ـ وهو تمامًا الأسلوب نفسه الذي كانت تصف أمها به».

## لا تقولي إننا متشابهتان

بالرغم من أن كثيراً من النساء تتوقعن ويقدرن تجارب التشابه والتماثل، فإن التأكيد على التشابه أحياناً من الممكن أن يكون محبطاً

خصوصاً إذا أتى من الأم. اعتقدت واحدة من الأمهات أنها كانت مستمعة جيدة ومساندة لابنتها عندما أكدت لها وقالت: «أعرف ما تعنين». واستمرت في وصف تجربتها وكيف أنها تطابقت مع تجربة ابنتها. لكن في يوم من الأيام أوقفتها ابنتها وقالت: «توقفي عن القول بأنك تعرفين شعوري لأنك مررت بالتجربة نفسها، أنت لا تعرفين. إن هذه تجربتي أنا والعالم مختلف الآن». والأم تستطيع رؤية هذا بوضوح، فعندما كان العالم يتغير بصورة أبطأ كانت تجارب الآباء قريبة وشبيهه بتجارب أبنائهم أكثر من وقتنا الحاضر. لكن الجانب الآخر الذي أزعج البنت وبدون شك هو شعورها بتعدي أمها على حقوقها وحرمانها من التفرد بالتجربة بمفردها وبمعنى آخر ـ تقديم الكثير من التشابه.

وهناك حالة أخرى من الممكن أن تعترض البنت على تعبير أمها التقليدي «أنا مثلك». وهو عندما تقول المرأة شيئاً سلبياً عن نفسها، فعليها أن تتوقع ألا يوافق معها الطرف الآخر على التقييم السلبي، بل ومن الممكن أن يرفض وينكر التقييم. وفي هذه الحالات فإن التعبير «أنا مثلك» من الممكن أن يكون محبطاً. وعندما يأتي هذا النوع من العزاء من الأم يكون الألم مضاعفًا. تتذكر باربرا الملاحظة القديمة التي قالتها لأمها:» أنا تقريبًا أجيد عمل معظم الأشياء لكني لست بارعة في عمل شيء معين.» وكانت إجابة أمها ختمًا لقسمتها فقالت: «هذا تماماً مثلي، أنا أعرف كيف تشعرين. لطالما وددت أن أكون بارعة في شيء لكني لم أفعل». هذا الرد كان بالنسبة لباربرا كتأكيد على نقصها وعدم كفاءتها وإصدار حكم ضدها بالعيش في حياة غير لائقة.

هل اعتقدت أم باربرا فعلاً أنها كانت تقدم السلوى والعون لابنتها من خلال التأكيد على أنها لم تبرع في عمل شيء معين وبذلك تؤكد تقييم ابنتها السلبي لنفسها؟ باربرا والتي كان لديها حياة مهنية ناجحة شعرت أن أمها حقا تمنت لو أن ابنتها كانت مثلها ـ ربة بيت ـ بدون حياة مهنية تجعلها تتميز في شيء معين. عندما بدأت حياة باربرا بالانحراف عن حياة أمها (كدراستها في الجامعة و حصولها على درجة الدكتوراه وبروزها في مجالها). شعرت بأن أمها رأت اختياراتها كخيانة. باربرا نفسها شعرت بأنها كانت تنبذ أمها لأنها لم تكرر أسلوب حياتها كما فعلت أختها. لقد كانت حياة أختها مماثلة لحياة أمها، وقد أوضحت الأم أنها تفضل التحدث لأخت باربرا فقد قالت مرة: «أسير أنا وأختك في طريق واحد الآن، ولم تعودي أنت معنا». إنه من العجيب كيف اختارت باربرا التعبير عن قبول أو رفض أمها للإشارة للشخص الذي تفضل الحديث معه. والحديث كما هو بالنسبة لكل البنات والنساء يمثل القبول والحب.

ترفض كثير من النساء توقع أمهاتهن بأن يكن نسخة لهن. قامت تلميذتي لورا رايت بعمل مقابلة مع امرأة تدعى لين لغرض البحث وشرحت فيها علاقتها مع أمها فقالت: «إننا شخصيتان مختلفتان ولمدة طويلة اعتقدت أننا متشابهتان، والآن إنه من الصعب علي أن أعبر عن اختلافنا ومن الصعب عليها تقبل ذلك. أعتقد أنها كانت تحاول طيلة الوقت نحت شخصية مصغرة منها». من وجه نظر لين فإن تخمين أمها بأن ابنتها تشبهها جعل من الصعب على الأم رؤية شخصية البنت على حقيقتها، لأن حقيقتها تختلف عن أمها وهذا يصنع المسافات بينهن.

امرأة أخرى أخبرتني عن عبارة رائعة و زاخرة بالمعنى تعبر فيها لأمها عن نفس الموضوع وهي: «مع كل احترامي.. أنا لست أنت».

## افعلي ما لم أفعل

إن رغبة الأم في أن ترى حياة ابنتها نسخة مكررة من حياتها لا يعني بالضرورة أن ترسل الرسالة التي تقول: «افعلي ما فعلت». بل ربما تجعلها ترسل رسالة مناقضة: «افعلي ما لم أفعل». عبرت كثير من النساء ذوات المهن والحياة المحترفة بأن أمهاتهن لطالما قمن بتشجيعهن وتحفيزهن على إيجاد عمل ومهنة يبرعن بها ويستمتعن بأدائها، وأن يتأكدن من قدرتهن على إعالة أنفسهن. كل هؤلاء النساء قلن إن أمهاتهن كن نساء مبدعات، موهوبات، قادرات وصغيرات في السن، تركن العمل أو الفن الذي أحببن عندما تزوجن ـ وكن محبطات لبقية حياتهن. وتماماً ككل أشكال التفاعل الاجتماعي فإن هذا يمكن ترجمته بشكل سلبي أو إيجابي. إن الجانب الإيجابي من هذا التوقع عبرت عنه إريكا جونغ والتي كتبت تقول: «إن أمي أرادت مني أن أكون الجناحين اللذين لم تحظ بهما لتطير حيث لم تملك الجرأة أبدًا لفعل ذلك. إنني أحب ما فعلت، أحب حقيقة أنها تود ولادة جناحيها». لكني أيضاً سمعت من نساء أحسسن بذنب عميق لأن أمهاتهن قمن بتضحية كبيرة في سبيل تربيتهم. وبعضهن شعرن بأن عليهن النجاح كرد الجميل لهذه التضحية. وكما عبرت إحداهن: «شعرت أنها عاشت من خلالي».

إذا كانت البنت تتصارع مع المعنى المقصود للتشابه والاختلاف مع الأمهات، فهي أيضاً تتصارع مع رغبتها في ما إذا كانت تريد أن تكون مثلها أم لا.

أم لشابين بالغين أخبرتني أنها أرادت وبشدة أن تكون مختلفة عن أمها لدرجة أنها لم تكن تريد أن تكون أماً على الإطلاق، قالت: «لم أود أبدًا أن

أكون أماً. ثم أدركت أن السبب يكمن في خوفي من أن أكون مثل أمي والتي لم تتواصل معي أبداً. ثم علمت أنه ليس علي أن أكون مثلها ـ ولم أكن أبداً». (ومن السخرية أن الأمومة قد بنت الجسور بينهما، فقد أخبرتني أنها وأمها أصبحتا قريبتين من بعضهما بعد أن بدأت الأم في مساعدة ابنتها عند ولادة طفلها الأول).

تقارن كثير من النساء بينها وبين أمها عند محاولتها اختيار أي نوع من الأمهات تريد أن تكون. إذًا كانت هذه المرأة قد شعرت بأن أمها لم تتواصل معها بالشكل الكافي فإن أخرى قد قالت: إن ابنتها تتواصل بشكل زائد. وعلقت أنها أحيانًا تشعر أن ابنتها الراشدة تفضي بمعلومات شخصية: «إنه ليس على الأم معرفة تفاصيل كثيرة كالحياة الجنسية لابنتها». وامرأة أخرى ذكرت أن كثيراً من البنات أخبروها أن الأم دائماً ما تريد معرفة الكثير من المعلومات عن حياتهن الجنسية، ولهذا قالت: «بالفعل! لقد كانت أمي تطفلية كثيراً، كانت تقرأ مذكراتي. أرادت أن تعرف كل شيء. ولهذا فقد رفعت حائطاً بيني وبينها وأصبحت شخصية خصوصية». هذا مثال لجيل يحاول القفز فوق جيل آخر، حيث تجاهد كل بنت لأن تكون مختلفة عن أمها.

## لا تستطيعين أخذي معك

وباطلاعنا على كل هذه الأمثلة والتي رأينا من خلالها كيف أن البنت لديها دوافع بالرغبة على عدم التشابه مع الأم. فإن الأم ربما تكون على صواب عندما ترى خيارات ابنتها المختلفة عنها على أنها عيب ونقد. والأم ربما ترفض اختيارات ابنتها فقط لأنها لا تفهم هذه الاختيارات. وأعتقد كانت هذا الحال مع أمي.

أتت أمي لزيارتي بعد مدة بسيطة من انتقالي لواشنطن.د.سي. وعندها كنت قد بدأت بالعمل في التدريس في جامعة جورج تاون، وكنت متحمسة للغاية لكي أريها بيتي الجديد و أن أقدم لها حياتي الجديدة. لم تكن أمي راضية عن ثورتي في أيام صغري. وقد كانت شديدة الاضطراب عندما انتهى زواجي الأول الذي دام ست سنوات. وخلال هذه السنوات كنت قد درست في الجامعة وحصلت على درجة الدكتوراه. الآن أصبحت أستاذة جامعية، وبوضوح كنت قد جعلت من حياتي شيئاً أفتخر به ـ ولقد علمت أنها ستفتخر بي أيضاً. وعندما كنت أريها حرم جامعة جورج تاون ومكتبي الذي يحمل اسمي على الباب ومؤلفاتي التي على الرف بدت أمي راضية ومسرورة. ثم سألت: «هل تعتقدين أنك كنت تستطيعين تحقيق كل هذا لو أنك بقيت متزوجة؟».

«بالطبع لا». أجبتها «لو بقيت متزوجة لما كنت رجعت للجامعة وأكملت دراستي وحصلت على الدكتوراه». أجابت «حسناً.. لو أنك بقيت متزوجة لما كان عليك القيام بكل هذا». ـ ضربة مؤلمة ـ وبطريقتها الاعتيادية واللامبالية فإن أمي صورت كل إنجازاتي على أنها أشياء تافهة لم تكن لي حاجة بها.

لقد سردت هذه القصة مراراً وتكراراً متأكدة بأني أستطيع أن أعتمد على المستمعين بأن يلهثوا لهذا الدليل وهو استخفاف أمي بإنجازاتي المهنية. لكن عندما أفكر بالموضوع الآن فإن أغلب الظن أنها كانت ببساطة تعكس العالم الذي عاشت به، الذي له مقياس واحد وواحد فقط للحكم على النساء ـ هل هي ناجحة أم مثيرة للشفقة ـ و وهذا المقاس هو الزواج.

أنا أتوقع أنها كانت تحاول فهم حياتي التي كانت مختلفة جداً عن أي شيء ممكن أن تتصوره لنفسها. أنا لا أعتقد أنها قصدت تشويه ما عملت وما أصبحت لكن العدسة التي ترى بها العالم لا تستطيع أن تشمل وتطوق الطريق الذي اخترته أنا. وبالرغم من أني أؤمن بأن الحقد لم يكن دافعها ومع ذلك فقد شعرت بالحزن لأن أمي لم تدرك التقديرات المهنية التي حصلت عليها ولأنه لم يكن لديها أدنى فكرة ماذا يعني أي منها.

كثير من القصص التي تقصها النساء هي برهان على عدم تقدير أمهاتهن أو حتى اعترافهن بالنجاح الذي تثمنه البنت في حياتها، خصوصاً في دنيا العمل.

إن التعليقات أو الأسئلة والتي يكون مرحباً بها في سياق غير هذا من الممكن أن تكون مزعجة إذا بينت أن أمك تركز على شيء غير الذي تركزين عليه أنت. وهذا يفسر ردة فعل ليسلي لسؤال أمها، فقد أدارت لسيلي بعينيها وهي تقول: «عندما أخبرت أمي بأنه قد تم دعوتي لتقديم الافتتاحية حفلة نهاية السنة للشركة التي أعمل بها. وأني قمت بعمل ذلك بشكل جيد. سألتني أمي: «ماذا لبست؟» وفكرت بداخلي من يهتم بما لبست؟ في الحقيقة ليسلي اهتمت، فلقد أمضت وقتاً طويلاً في محاولة إيجاد اللباس المناسب ـ وغير الرسمي ـ حتى تستطيع أن تحضر به الحفل. لكن ليس باللباس اللامبالي والذي من شأنه أن يعطي انطباعاً غير جدي لزملائها في العمل. إن تركيز أمها على اللباس يبدو كما لو أنه يلغي شرف أنه قد تم اختيارها وأنها أنجزت عملاً جيداً. إن سؤال أمها بدا وكأنه قد قام بقطع هذه الإنجازات وقطع معه شعور ليسلي بالنجاح المهني.

«جوون» كان لها تجربة مشابهة. كانت قد شعرت بالسرور عندما علمت أن المؤتمر الأكاديمي الذي ستقدم فيه بحثها سوف يقام بالمدينة نفسها التي يعيش بها والدها. وقد قامت بدعوتهما لحضور محاضرتها. كانت قد استبقت بلهفة شعور والديها بالفخر بها، ولرؤيتها في المحاضرة تخطب في جمهور كبير ومتنبه.

حضر والدا جوون بالفعل وعند انتهاء المحاضرة تقدما نحوها بابتهاج وقال والدها: «لقد كنت رائعةً يا عزيزتي إنه لمن العجيب كم من المعلومات تعرفين». قالت أمها: «لقد كان مظهرك رائعًا باللباس الأسود». ويمكننا اعتبار كلا التعليقين مدحًا. لكن كان تعليق أمها قد خيب ظنها بطريقة ما.

إن أم ليسلي وجوون قد تكلمتا ببساطة بالطريقة التي تعودن عليها، تعودن التواصل مع بناتهن من خلال اهتمامات مشتركة بالملبس والاهتمام بالمظهر. إن ما يجعل هذه الإجابات مؤلمة هو ألفتها وعدم الكلفة في قولها، فبينما كانت ليسلي وجوون تقدمان أنفسهما لأمهاتهما بهيئة جديدة وكانت الأمهات تنظر للبنات بالهيئة القديمة. وهذا هو سبب الغضب.

وعندما يحصل المدح بالطريقة القديمة يفسر أيضًا انزعاج امرأة أخرى من أمها. فقد كانت أم إيميلي تزور ابنتها عندما علمت الابنة أن الطلب الكبير الذي قدمته لمكتب الحكومة قد اعتمد بالموافقة. كانت هذه حادثة مهمة في حياة إيميلي المهنية. وإيميلي كانت سعيدة بأنها تستطيع إبلاغ الخبر لأمها. وعند سماع الخبر قالت الأم: «هذا الخبر يستحق قبلة». بالرغم من أن أمها تجاوبت بالموافقة ـ والقبلة هنا هي جائزة لعمل تم على أفضل وجه ـ إلا أن إيميلي شعرت أن القبلة لم تكن مناسبة لأهمية

وطبيعة الخبر والفوز بجائزة تنافسية عالية. إن القبلة ربما تكون مناسبة لطفل تلقى نجمة من مدرس الفصل لكتابته الفروض الدراسية. وهي تهنئة ليست لائقة لعالمة تلقت تقديراً وتمييزاً مهنياً. غرق قلب إيميلي، وشعرت أن أمها قد قللت من أهمية الخبر. على الأرجح كانت أمها تعتقد أنها تظهر لها التقدير وتشاركها الفرحة، لكن نظرة العلم كانت قد أزيلت من خبرتها وببساطة لم تعلم الطريقة المناسبة للتجاوب. لقد تجاوبت معها كتجاوب أم مع ابنتها بأساليب كانت متبعة عندما كانت إيميلي صغيرة.

## اهبطي إلى هنا هذه اللحظة

خيبة ظن امرأة أخرى تجاه ردة فعل أمها تبدو وأنها تنبع من مصدر مختلف ـ الغيرة التي تأتي مع القرب ـ أظهر عالم النفس أبراهام تيسير أنه كلما كان الناس أقرب إلينا زادت فرصة مقارنة أنفسنا بهم. وإذا شعرنا بأننا نبدو أسوأ من خلال المقارنة فإنه سينتهي بنا الأمر إلى الشعور بالسوء تجاه أنفسنا. وطريقة جيدة لتفادي هذا الشعور غير المريح هي التقليل من الاختلاف والذي يستلزم عادة التقليل من إنجازات الآخرين.

الكاتبة آنجلا مازالت تتذكر الإحباط والألم الذي شعرت به عندما نشرت قصتها القصيرة لأول مرة في مجلة صغيرة. في لحظة وصول المجلة بالبريد بدأت آنجلا بتخيل مشهد رؤية أمها للمجلة. وفي الزيارة التالية أسرعت آنجلا للمطبخ حيث وجدت أمها تغسل الأطباق. وبدون أن تنتظر أمها أن تجفف يديها من الماء حملت آنجلا المجلة أمام عيني أمها معينة الصفحة على القصة التي كتبتها والتي طبع اسمها عليها. جففت الأم يديها بالمريلة وأخذت المجلة من يدي آنجلا وتفحصتها وقالت: «كيف

يمكن لأي شخص أن يشتري مجلة كهذه؟ لن يتمكن أحد من إيجادها. من سيقرؤها؟» ومع هذه الكلمات تقاطر حماس آنجلا إلى الأعماق كما تقاطرت مياه الأطباق المغسولة إلى أعماق المغسلة.

ظنت آنجلا أن توقيتها كان سيئاً، فلم يكن عليها مفاجئة أمها في المطبخ. وفي المرة التي تليها أخذت آنجلا حذرها عند تقديم مجموعة القصص الجديدة التي نشرت لها حديثاً. كتاب حقيقي هذه المرة يحمل اسمها على الغلاف. بينما كانت آنجلا تزور والديها انتظرت اللحظة المناسبة، وقد اعتقدت أنها وجدتها عند انتقال والديها من غرفة الطعام إلى غرف المعيشة بعد تناول العشاء. والدها كان يقرأ كتابًا وأمها كانت تقرأ صحيفة. ذهبت آنجلا إلى الطابق الثاني لإحضار الكتاب وهذه المرة لم تسرع، ثم عادت ومعها الكتاب وقدمته لأمها، وعلقت الأم بعد النظر إلى الكتاب أن هناك مقالاً في الجريدة التي كانت تقرأ عن ربة بيت جنت الكثير من المال من كتابتها للقصص الرومانسية. وقالت: «لماذا لا تكتبين كتاباً كهذا؟ على الأقل سيكون عندك شيء ترينه للناس».

أنجلا تعتقد أن أمها قامت بتقليص إثارتها وحماسها بهذه الطريقة لأنها شعرت بالغيرة من إنجازات ابنتها في العالم الكبير. حتى وإن كانت أمها هي التي شجعتها على السعي وراء هذه الإنجازات. إن مذكرات فيفيان كرونيك تحمل إشارات لمعرفة السبب الذي يجعل بعض الأمهات تتجاوب بهذه الطريقة مع نجاح بناتهن.

كانت كرونيك وأمها تمشيان معًا بعد يوم فقط من استماع أمها لمحاضرة كانت قد ألقتها كرونيك بشكل فعال أدهش الجمهور الكبير والمتفتح. فكتبت كرونيك: «أنا أتوقع بالضبط ما ستقوله». إنها على وشك

أن تخبرني كم كنت رائعة في ليلة الأمس. ثم تفتح الأم فمها وتقول: «خمني من رأيت في المنام البارحة؟ صوفي شوارتزمان!»

جفلت وفقدت توازني.. إنني لم أتوقع هذا. قلت: «صوفي شوارتزمان؟» لكن تحت المفاجئة كان الشعور بالفزع والرهبة ينمو كنمو حبة القمح في يوم مشرق وساطع.

شرحت كرونيك أن صوفي الجارة المتوفاة من عشر سنوات لها أولاد قد حققوا إنجازات لا بأس بها. فابنها أصبح مؤلفاً موسيقياً مشهوراً وابنتها فرانسيس تزوجت من رجل غني. وهذا وصف الأم للحلم الذي رأت: «حلمت أني كنت في منزل صوفي ثم دخلت ابنتها - وكانت قد كتبت كتابا، وطلبت مني قراءته وفعلت ولم أتحمس كثيراً للكتاب، أغضب هذا فرانسيس كثيراً، وأخذت بالصراخ على أمها .. لا تدعيها تأتي إلى هنا أبدًا». لقد شعرت بالاستياء.

وصفت كرونيك التأثير الذي تركه كلام أمها عليها: «إنني أشعر كما لو أنني كنت أجر أثقالاً من الرصاص، إنني أعاني، حتى إنني لا أستطيع أن أضع قدمًا أمام الأخرى». لقد ازدرتها أمها واستخفت بها ليس فقط عندما أهملت مدح عملها المتألق، لكن أيضًا عندما أخبرتها عن الحلم الذي تكره فيه كتاب البنت. بالرغم من أنه في الحلم كانت البنت ليست ابنتها. إن أثقال الرصاص في أقدام كرونيك ثقيلة بخيبة الأمل في تجاوب أمها الميئوس منه. لماذا قاومت أم كرونيك (أو أم آنجيلا) إغداق ابنتها بالمدح والتعبير الحماسي عن القبول لنجاح ابنتها. من المتوقع أنه كان من الصعب عليها أن تكون سعيدة تجاه نجاح وذكاء ابنتها في المجال نفسه

الـذي تخمد فيـه طموحاتها الخائبـة. وعند معرفتنا لمدى قـرب الأمهات والبنـات وكـم هو مرجـح أن ترى الأمهـات الانعكاس والنبـذ والانحراف لحياتهن في البنات. فإنه ليس مفاجئاً أن تشـعر الأمهات بالغيرة في بعض الأوقات لأن البنات أنجزن وحصـلن على ما كانت تود الأمهات الحصـول عليه ولم يستطعن.

## الوحش ذو العين الخضراء في غرفة المعيشة

علقت واحدة من النساء: «أنا مسرورة جدًا أنني أستطيع أن أوفر لابنتي أشياء لم أكن أحظى بها لكنها أحيانًا تغيظني، إنها مازالت في السابعة من العمر وقد زارت الصين وأندونيسيا. إنني مسرورة بهذا لكن أحيانًا أشعر أنها لا تقدر هذا بالقدر الكافي، لا تدرك كم هي محظوظة ـ لكني أدركه لأني أشعر بالغيرة منها. إنه لشيء فظيع أن أعترف بأني أشعر بالغيرة من ابنتي خصوصًا أنها في سن صغيرة جدًا. لكني أعترف بأن هذا ما أشعر به في بعض الأوقات». وبعض البنات يشعرن بهذه الغيرة حتى لو لم تذكرها الأم أبداً.

اتصـلت دانـا بأمها مـن جزر الباهامـا وكانت تصـف بحماس جمال الشـمس والبحر. فقالت أمها: «يبدو رائعًـا. كنت أحب أن أذهب إلى جزر الباهامـا، أعتقد أنه علـي العيش من خلالك». بالرغم من أن أمها لم تقل أي كلمة تشـير إلى أنها تحسـدها على العطلة السـاحرة، إلا أن علمها بأن أمهـا تحسـدها على حياتها (وقد أقـرت بذلك فيما بعـد) جعل دانا غير مرتاحة. لقد كان عيش حياة أمها و محاولة عدم الشعور بأنها تحمل أمها علـى ظهرها صـعبًا بما يكفي. هناك سـبب آخر يجعـل الأم في حيرة من

أمرهـا تجاه مغامرات ابنتهـا، فعندما ترى الأم أن ابنتها تعيش حياة أكثر روعة من الحياة التي عاشت فإنها ربما لن تشعر بلمسة من الغيرة فقط بل أيضـاً ستتأكد فكرة أنها أصبحت عجوزًا. وأن الأيام التي كانت تأخذ فيها عطلات رومانسية في جزر الباهاما قد ولت بلا رجعة.

حتى الأمهات اللاتي يشجعن بناتهن على فعل كل ما في طاقتهن للنجاح فإنهن أحيانًا يفكرن بإيقافهن. لأن الإنجازات التي حققتها الأمهات ستبدو حقيرة مقارنة بإنجازات بناتهن. وحياتهن تبدو مملة وفاترة مقارنة بحياة بناتهن الممتعة والمشوقة.

قال عدد كبير من النساء بأن فرحة أمهاتهن تجاه إنجازاتهن ليست خالصة ومحضة. كان هذا الحال مع كاتبة استمتعت بالهتاف والشهرة إلى حد ما. وقالت إنه بالرغم من أن أمها شجعتها دائمًا لأن تقوم بشيء أكبر من تربية الأطفال وأن تنهي تعليمها وتصنع شيئًا من نفسها مع ذلك لم تكن أمها مسرورة من الاهتمام الذي تتلقاه ابنتها الآن، تقول الكاتبة: «إنها دائمًا تعطيني الانطباع بأنه علي إمضاء وقتٍ أكبر في الاعتناء بزوجي وأولادي ووقتٍ أقل لتلقي الاهتمام من العالم الخارجي. أعتقد أنها تشعر بالغيرة مني لأنها كانت تستطيع أن تحقق الكثير في حياتها لو أنها لم تترك الجامعة عندما تزوجت».

إن هناك أدلة وبراهين في البحث النفسي تدل على أن نجاح البنت من الممكن أن يشعر الأم بالاستياء من نفسها زيادة على ما كانت تشعر به. قامت كارول ريف وباميلا شمت ويونغ هاين لي بعمل تحقيق في

العلاقة بين نظرة وتقييم الآباء لإنجازات أبنائهم البالغين وبين تقييمهم لأنفسهم. ووفقا لمسح أجري على 114 أمًّا و101 أب (من عائلات مختلفة) والذين لديهم أولاد فوق سن الواحدة والعشرين. قامت النسوة بدراسة تأثير إنجازات الأولاد البالغين في حياة وسعادة آبائهم.

لقد فوجئت الكاتبة بأن الأثر السلبي يكون فقط في حالة الأم والبنت! وبكلمات الكاتبة: «بالنسبة للآباء فإن مقارنة المكاسب والإنجازات مع الأبناء أو البنات لم يتعارض مع تصنيفهم لأنفسهم في الوقت نفسه لم تؤثر إنجازات الأولاد بالأمهات. لكن الأمهات اللاتي أدركن أن بناتهن قد نجحن في حياتهن أكثر منهن كن أقل سعادة». لم تتوقع الكاتبة هذه النتيجة ومع ذلك فإن هذا هو التأثير الحقيقي الذي تشعر به كثير من الأمهات والبنات في الحياة. والذي يعزز الانطباع بأن من بين علاقات الآباء بأبنائهم الأربعة (الأم والبنت، الأم والابن، الأب والبنت والأب والابن) فإن علاقة الأم وابنتها هي أكثر العلاقات التي تحمل ثقلاً عاطفيًا فريدًا.

## الاختلاف يساوي البعد

إن الحسد والمقارنة ليست وحدها الأسباب التي تجعل الأم تشعر بمسحة من الندم على تراجع ابنتها رغم أنها تريد حقًا لابنتها التحليق عاليًا. يمكننا أن نرى هذا في الحلم السابق لأم فيفيان كرونيك والذي رأته بعد أن رأت ابنتها تلقي محاضرة عامة يسودها النصر. وفي حلم السيدة كرونيك فإن فرانسيس شوارتزمان صرخت وقالت: «لا تجعليها تأتي إلى هنا مرة ثانية». وهذا ما جعل من الحلم كابوسًا. فإن البنت التي تنتقل إلى

عالم لا تسكنه أمها فهي ببساطة تبتعد مكونة مسافة لا يبنى عليها جسور، وهي أكبر من المسافة الحقيقة والتي ربما تكون بسبب الانتقال إلى خارج المدينة. وهنا مرة أخرى فإن مذكرات كرونيك بالغة الفصاحة. عندما بدأت دراستها الجامعية (والتي لم تدرسها أمها) كتبت كرونيك: «بمرور شهر على ارتيادي هذه الدروس تغيرت جملي وأصبحت طويلة ومعقدة، تتشكل من كلمات لم تكن أمي تعرف معناها دائمًا. لم أتكلم في حياتي بكلمة لم تعرف أمي معناها». هذا أغضب أمها وقد فوجئت كرونيك من غضب أمها فقالت: «لقد كنت أود أخذها إلى العالم الجديد وكل ما كان عليها فعله هو أن تحترم ما قد أصبحت عليه وقد رفضت هي هذا».

إن واحدًا من الأسباب التي قد تجعل الأم لا تحترم ما حققته ابنتها هو عدم مقدرتها على مرافقة ابنتها إلى العالم الجديد التي دخلته كما في القصة الآتية. فقد نشأت امرأة تدعى شيريل في أسرة من طبقة متوسطة في ولاية نيو جيرسي، حاولت شيريل أن تيسر لأمها رؤية العالم الجديد الذي أصبحت تقطن به في واشنطن دي سي، وأن تتشارك هي وأمها به. مثلاً قامت شيريل بأخذ أمها إلى حفلة موسيقية في مركز كينيدي وعندما انتهت الحفلة توقعت بحماس مديح أمها للموسيقى ولصالة العرض الفخمة التي عزفت بها الموسيقى. والشيء الذي قالته أمها كان كالآتي: «عندما كنا نذهب إلى حفلات عيد الميلاد في صالة راديو المدينة كنا نستمتع أكثر من ذلك». سمعت شيريل في هذه الملاحظة تلميح أمها بأن الحفلة في مركز كينيدي للموسيقى كانت مخيبة للظن وهذا بدوره خيب ظن شيريل بالمقابل.

وعندما حاولت شيريل أن تقدم لأمها الأشياء الفخمة والراقية والممتعة والتي باستطاعتها الآن شراؤها وتقديرها اتهمتها أمها بالتعجرف.

والحقيقة أن أمها لم تشعر بالراحة في عالم شيريل الجديد. فالبنت قد أخذت درباً لا تستطيع الأم اجتيازه، وليس هناك أي مقدار من الإغراء أو التملق يمكنه تغيير ذلك. لقد فتح خليجاً - أو هاوية - بينهم بينما كانت الأم وابنتها تقفان على أرض واحدة في السابق.

لقد أحزن شيريل أن المسافة بين عالمها الجديد القديم قد أحدث مسافة بينها وبين أمها، لأنها في صغرها كانت قريبة جداً من أمها. كانت شيريل قريبة من ابنتها أيضاً لكن القرب لم يأخذ الشكل الذي توقعته: «إن صدمة حياتي كانت أن ابنتي لم تكبر لتصبح مثلي تمامًا».

أي شيء يجعل من البنت مختلفة هو مصدر لقلق الأم. تحدث الكاتب بول بريستون في كتابه «أمي وأبي أصمان». عن طفلة تستطيع السماع لأبوين أصمين. جرى الحوار بينه وبين امرأة صماء تصف له ولادة ابنتها. تروي المرأة كم انزعجت عندما علمت أن ابنتها المولودة تستطيع السماع فقالت:

«كنت أحملها بين ذراعي قرب عربة الأكل الحديدية، رفعت ملعقة الطعام ورميت بها على العربة لم أصدق ما رأيت! لقد كان مزعجًا حقا، لقد قمت برميها مرة أخرى فقط لأني لم أكن أصدق ما أرى. رميت بالملعقة ثانية وثالثة وكان الشيء نفسه. يا إلهي إنها تسمع!! ماذا عساي أن أفعل؟ إن لدي بنتاً تسمع! دخل زوجي وقال: «يا إلهي إن ابنتنا تسمع!» لقد كان متفاجئاً مثلي، لكنه قال: «إن الأمور ستكون على ما يرام».

لقد شرحت المرأة لبريستون أنها كانت منزعجة من أن ابنتها تستطيع السماع، لأنها أرادت أن تكون قريبة من ابنتها كما كانت قريبة من والديها

الأصمين أيضاً. واستمرت فقالت:«إنني قلقة من أننا لن نتواصل أو أننا سننجرف بعيدًا عن بعضنا».

إن تفسير هذه المرأة لانزعاجها بأن ابنتها مختلفة وأنهما سوف ـ تنجرفان بعيدًا عن بعضهما ـ يفسر كيف أن حجم ومقياس «التشابه والاختلاف» يتقاطع مع «القرب والبعد» بالرغم من أن الأمور لا تنتهي بهذه الطريقة دائمًا إلا أن التشابه يبدو وأنه يضمن القرب والصلة والاختلاف يؤدي إلى البعد.

وهذه المعادلة تبعث الشبح الذي يلازم حياة البنات والنساء الاجتماعية وهو: أن يتركن وحيدات.

## لمس الأجساد

لقد استخدمت عبارات «البعد والقرب» كطرق مجازية للحديث عن الحالات التي أساسها العاطفة، لكن في بعض الأحيان فإن القرب العاطفي يجسد حرفيًا بالقرب الجسدي والبعد يجسد بفقدان هذا القرب. وهنا أيضًا فإن آراء البنات والأمهات في المقدار الملائم لهذا القرب تختلف. بعض النساء تقدس الصلة أو القرب الجسدي مع أمهاتهن أو بناتهن وأخريات يتراجعن عنه. وتختلف آراء النساء حول المقدار الملائم ونوع الصلة الجسدية المناسبة. والتكيف مع هذه الاختلافات حول المقدار المناسب الذي يؤدي الدور المطلوب هو صورة واقعية وصلبة للتفاوض في علاقة مريحة مع ابنتك أو أمك.

علقت امرأة قائلة: «أحد الأشياء التي أحبها في علاقتي مع ابنتي هو أن علاقتنا حميمة وجسدية (كناية عن العناق والتقبيل بين الأم

وابنتها)، إنها في الثالثة والعشرين من العمر وما زالت تأتي وتجلس في حضني وتحتضنني.» هذه المرأة ليست وحيدة في تقديس هذه العاطفة الجسدية. تحكي رواية سو مونك كيدز «الحياة السرية للنحل» عن فتاه تدعي ليلي ماتت أمها وهي في سن الرابعة، تتخيل ليلي عناق وتقبيل جسد أمها الحي في ذكرى مؤثرة لما فقدت. هنا تصف الألم لفقدانها الأم التي بالكاد تتذكر أو ربما لفقدانها «الأم» بالمعنى المثالي المتجسد بالبدن. وهو السبب الذي جعل القراء ينسبون لهذا الألم بالرغم من أنهم لم يفقدوا أمهاتهم. قالت ليلى:

«إن أسوأ شيء كان الاستلقاء والتفكير بأمي، لطالما كان الوقت يمضي في شوقي وتحرقي لقربها. يأتي دائماً هذا الشعور في أكثر أوقاتي ضعفًا.. في الليل. أتقلب على الفراش متمنية أن أزحف إلى السرير معها وأشم رائحة جلدها. أتصور نفسي أستلقي إلى جانبها وأضع رأسي قريبًا من صدرها قريبًا من قلبها النابض وأسمع. أنادي... أمييييي وتنظر إلي قائلة.. طفلتي إنني هنا».

إن الوصال الجسدي والشعور ورائحة جلدها يمثل حضور الأم في حياة البنت. (بغض النظر عن لو أن أم ليلي لم تمت لكانت ستكون مستلقية في السرير تعدد وتسجل عيوب أمها).

ذكرت امرأة توفيت أمها وهي في سن متقدمة واصفة التواصل الجسدي بينهما وأنه دليل على عمق الرابط الذي كان يربطهما: «كنا نجلس قريبتين جدًا من بعضنا ونلتصق ببعضنا لدرجة أن أبي كان يسخر منا ويقول: إنه لا يستطيع تمييز أجسادنا من بعضها لدرجة تقاربها».

كانت روشيل والتي تبلغ من العمر الخامسة والثلاثين تأخذ قسطاً من الراحة على سريريها بينما جلست أمها بالقرب تؤنسها. وفجأة رأت الأم شيئا أقلقها على وجه روشيل؛ فانحنت الأم فوقها لتتفحص العلامة بدقة أكثر حيث أصبح وجهها فوق وجه ابنتها تماماً، ومكثت على هذه الحال حتى اقتنعت بأن العلامة لم تكن خطيرة. انزعجت روشيل إلى أن بدأت تتلوى في مكانها بسبب تطفل أمها. إنها وصفة الملكية الغالبة على نظرة أمها المحدقة، لقد كانت نظرتها كما لو أنها كانت تنظر إلى وجهها تتفحصه بقرب شديد وثبات.

والحال نفسها بالنسبة لكارلا فإن أمها أحياناً تريد أن تقترب كثيرًا منها، تقول: «واحدة من الأشياء التي تزعجني كثيرًا عندما تزورني هي قولها: «عانقيني» وبالطبع فإني أقوم بعناقها حتى لا أؤذي مشاعرها لكن هذا يخلق شعوراً فظيعاً في داخلي لأني لا أريد عناقها في الحقيقة، لذا هذا يشعرني وكأني طفلة عليها القيام بأشياء لا تود القيام بها». إن هذا لا يعني أن كارلا لا تحب أمها، أو أنها لا تود عناقها، لكن النقطة التي يختلفون عليها هي تكرار هذه العميلة. تقول كارلا: «عندما أقابلها في المطار سأقوم بتقبيلها واحتضانها لكنها لا تريد التوقف. وأشعر أنه ليس علي القيام بهذا مرة أخرى إلا عند توديعها لكنها تريده في الصباح والمساء وبينهما، تكرر عبارة «عانقيني» أكثر من مرة.

ما مقياس العاطفة التي من الممكن أن نقول إنه مبالغ فيها؟ وما المقياس الذي من الممكن أن نصنفه على أنه شحيح وبخيل؟ وماذا يحدث عندما يكون للبنت والأم آراء مختلفة حول هذه المقاييس والمقادير؟ إن الحد الفاصل بين الاثنين دقيق للغاية كما رأينا في الأمثلة السابقة. فمن

الممكن أن يكون المقياس بالعاطفة الجسدية أو بحجم المعلومات المتبادلة أو ببساطة بالطريقة التي نتصرف بها في بيت الطرف الآخر.

## الراحة في بيتك

كثير من الحكايات التي أسمعها من النساء عن أمهاتهن أو بناتهن لها علاقة ببيوتهن والذي يعطي الشعور بأنه امتداد أو تجسيد لأنفسهن. في الفصل الثاني تكلمت عن أم كانت تحاول تحسين وتطوير بيت ابنتها عن طريق إعادة ترتيب الأثاث ونجحت فقط في إغضاب ابنتها. وفي مثال آخر كانت الأم هي التي وجدت نفسها الهدف في محاولة شبيهة وبنتائج مماثلة. فلقد عادت من العمل يوماً لتجد أثاثها وقد أعيد ترتيبه وزود بطاولة قهوة جديدة. إن ابنتها التي تملك مفتاحاً إضافيًا للبيت كانت قد اشترتها بعد سنوات من محاولة إقناع أمها بأنها تحتاج طاولة جديدة. وقامت بكل هذا كمفاجأة لأمها في عيد ميلادها. إن أمها قد تفاجأت بالفعل لكنها مفاجأة بدون رضا. اتصلت الأم بإحدى صديقاتها وطلبت منها القدوم لمساعدتها في إعادة الأثاث كما كان عليه، ولم تتصل بابنتها لأنها كانت غاضبة، فلم تكن حتى تود الحديث إليها. في هذه الأمثلة فإن البنت أو الأم قامت بالتصرف في بيت الأخرى كما لو أنها تتصرف في بيتها. وقد سمعت أنا عنها لأن النتائج كانت تتعارض. لكن في المقابل ذكرت أمهات كيف كان موضوع البيت سبباً لاتفاقها مع ابنتها. تقول الأم: كم كانت زيارتها لابنتها رائعة وتروي كيف أن ابنتها سمحت لها بطبخ وجبة. إن السماح للأم بالسيطرة على المطبخ كان هو دليل مجازي لتقبل البنت لأمها والرغبة في التقرب منها. وفي حالة أخرى قالت: أم إن السبب في العلاقة الممتازة بينها وبين ابنتها يرجع إلى أنها تتصرف على أنها ضيفة في بيت ابنتها.

بالرغم من أن المواقف التي اتخذتها النساء هنا تجاه بيوت بناتهن كانت متعارضة إلا أن المعنى المجازي «للبيت» كان واحداً، «مكان» لإيجاد مستوى من الراحة والتواصل مع محاولة تفادي وتجنب الانطباع غير المريح للتطفل. وبمعنى آخر ـ التفاوض في مدى القرب أو البعد في العلاقة بين الأم والبنت.

نفس هذا الإرضاء والصراع يتم من خلال أنواع أخرى من الممتلكات فقد قالت إحدى الأمهات مثلاً: إنها تحب أن ترى ابنتها تستعير وترتدي ملابسها، وأم أخرى قالت: إن الشيء الوحيد الذي ترفضه هو ارتداء ابنتها لملابسها. وكلا التصرفان صحيح مادامت الاثنتان لهما نفس الموقف تجاه تبادل الملابس أو ممتلكات أخرى. إنه عندما يختلفان تكون النتائج محبطة ومقلقة.

## لمن هذا؟

عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري؛ قمت بشراء قناع تزلج ملون من محل صغير في قرية جرينتش. كان قد صنع في بيرو، وقد كان يغطي الوجه تماماً ويترك فتحة للعينين والفم فقط. لم أتزلج و لم ألبسه. (لبسته مرة واحدة وكانت كارثة. لقد كان الناس يحدقون النظر في خلال ركوبي الحافلة في يوم قارس البرودة. وقد سخر مني الركاب الذين اعتقدوا أني صبي. احتفظت بالقناع الملون في رف الملابس بجانب القبعات، وفي يوم لم أجده في الرف، فسألت أمي عنه فقالت: إنها قد أعطت القناع لصديقتها لأنها اعتقدت أن ولدها سوف يحبه ويلبسه. غضبت كثيراً مع أنني لم أكن أنوي لبسه أبدًا، لكنه مازال يعجبني، وقد اشتريته بمالي الذي جنيته من

عملي في المدرسة. لكن ما أغضبني هو «أنه كان لي» وشعرت أن أمي لم يكن لديها الحق في أن تعطيه لأحد.

روى علي هذه القصة زوجان في السبعين من العمر بينما كنت أزور مدينة نيويورك، وكلاهما من سكان نيويورك الأصليين لكنهما لا يسكنان بها الآن. إن رؤية مبنى بالصدفة أثارت لهما الذكريات فقال الزوج بحنين: «إن هذا المبنى الذي أقيمت به حفلة «السي سي إن واي» أدار الزوج رأسه ملتفتًا إلى زوجته: «هل تتذكرين؟ لقد أعطيتك باقة زهور صغيرة لثوبك». فأجابت الزوجة: «ولأنها كانت أول باقة تعطيني إياها فقد قررت أن أحتفظ بها. لقد وضعتها في الثلاجة حتى لا تخرب، ثم في اليوم التالي اختفت. قد أعطتها أمي للجارة». في البداية بدا لي هذا شيء لا يصدق، ثم كيف بالله تعطي أمها باقة زهور صغيرة خاصة بثوب للجارة؟ حاولت أن تشرح أنها تتخيل أن دافع أمها كان أن تعلم الجارة أن ابنتها لديها خطيب وقد أهداها باقة جميلة ثم عرضتها هدية على الجارة لكسب بعض النقاط.

وبما أن الناس تحكم على الأمهات بنجاح أو فشل الأبناء، فإنه من الرشد إذاً معرفة أن نجاح ابنتها من الناحية الرومانسية يعزز من مقام الأم عند الجارة. إن الوقوف مع الجارة وإعطاءها شيئاً لم تعد تحتاجه يعد طريقة كريمة ومناسبة للحفاظ على العلاقة مع الجارة أو الصديقة. لذا فلماذا لا أفعل نفس الطريقة باستخدام شيء من ممتلكات ابنتي؟ من المؤكد كان هذا هو دافع أمي لإهداء قناع التزلج الذي لن ألبسه أبدًا. ونفس النموذج يتكرر مع الأم التي اعتقدت أن حفل المدرسة قد انتهى، وأن ابنتها قد استخدمت باقة الزهور الصغيرة الخاصة بفستان الحفل وأدت الباقة هدفها، ما الخطأ الآن في استخدام الباقة في هدف آخر؟ وفي الوقت نفسه

كسب رضا الجارة؟ إن الذي بدا للأم مناسب قد بدا للبنت فظيعاً وغير محتمل بسبب اختلاف بسيط في الرأي. لقد شعرت البنت أن باقة الزهور لها وحدها بينما شعرت الأم أن لها حق فيها أيضاً. إن شعور الأم بالقرب والتواصل وما يتبع هذا من ملكية اختلف عن شعور ابنتها.

وفي كل هذه الأمثلة كافحت الأمهات والبنات لمعرفة طرق التشابه والاختلاف بينهما، وما يمكن فعله تجاه هذا الاختلاف أو التشابه. إن هذا الصراع لا مفر منه في التفاوض المتواصل للقرب أو البعد في العلاقة.

هل التشابه يقربك أكثر أم يبعدك؟ وهل الاختلاف يستلزم البعد؟ وكم بالضبط تريد من القرب أو البعد في العلاقة؟ هذه الطرق الديناميكية هي من الطرق العديدة للعلاقة بين الأمهات والبنات والتي تمثل كل العلاقات لكن بحدة وإلحاح أكبر.

obeikan.com